صفحة من مؤرخي العراق

مؤرخ عراقي

يوسف للقب بعزيز المولوي صاحب تاريخ قويم

Iûsuf 'Aziz Maûlawy

قال ابو الطيب :

وانما النـاس بالملوك وما تفلح عرب ملوكهـا عجم

صدق المتنبي ، فان الاجانب أثروا في ثقافتنا فاقتنصوا منا جماعة خدموا آدابهم وراعوا سياستهم فصاروا يعدون منهم . ومترجمنا احدهم وهو يوسف افندي المولوي الملقب بعزيز ، من شيوخ هذه الطريقة ، ومؤرخ عراقي كبير ، واديب يعد من بلغاء الاتراك في لغتهم ، استهواه العثمانيون وجذبوه اليهم، فخدم آدابهم وسياستهم ، وراعى طرائقهم وصار يعد من كبار رجالهم ...

له انتساب الى الوزير حسن باشا فاتح همذان ووالي بغداد المتوفى سنة ١١٣٩هـ (ولا ادري درجة هذا الانتساب وماهيته) من زمن والده (ولم يذكر المؤرخ الموما اليه اسم والده) وايام اخيه اسعد المرحومين (ولم يعرفنا بهذا ايضاً ولا تمكنا من العثور على احوالهما في التراجم التي بايدينا) ذكر هذا وقال :

انني واقف على سيرة هذا الوزير حسن باشا ، وعالم بها كما هي حقها وهذه الدعوى قد ايدها فعلا وقام بالبرهنة عليها حقيقة . فانه يذكر وطنه الاصلي وتقلباته في المناصب الى ان وجهت اليه وزارة بغداد ... وما يلي ذلك من حوادث زمنه .

ان مترجمنا تنوسي امره ولم يعرف مدة في حين انه جلا صفحة غامضة من تاريخ العراق لمدة تزيد على ربع قرن اي من سنة ١١٠٠ الى سنة ١١٢٦ هـ وفصل القول عنها باسهاب بحيث لم يغفل عن اشخاص الوقائع ولا عن تصوير الحوادث فكشف مخبآت زمن نحن في ضرورة الى اظهـار ما طوته عنا الايام من خفاياها .

فالاشارة في مثل هذه المواطن لا تكفي، والكناية لا تفوق التصريح ولا

يغنينا الابهام . فالوقائع نتائج ما قبلها وتمهيد لما يؤول اليها الزمن من حوادث بعدها . فهي مرآة اظهرت صور ذلك العصر ...

هذا المؤرخ رسم لنا بل وصف حالة العصر قبل زمن هذا الوالي والنبيل الذي اجراه في مدة حكومته . فقد بذر البذرة الاولى لتأسيس حكومة المماليك في العراق وقوى يد الترك ومكنهم في هذا المحيط وأمات الروح الوطنية او انه قضى على قدرة الاهلين على اختلاف صنوفهم . ولولاه لنال حظاً من الادارة الاستقلالية .

ومن الغريب ان يهمل شأن هذا المؤرخ الطويل الباع في تفصيل الحوادث وفي لغتاته القويمة، فتاريخه (قويم) بمعنى الكلمة . ومن حسن الصدف العثور على هذا المؤلف الذي بسببه توضحت الوقائع في الربع الاول من القرن الثاني عشر . وبهذه الصورة صححت صفحة من التاريخ وانجلى عنها المبهم فلم نجد لها مصدراً تاريخياً اعظم من هذا المؤلف الجليل

ولعل دواعي اهماله ، واكتفاء ابناء يعرب بمجمل ذكراه فقط واضحة. اما من غيرهم — اعني الترك — فذاك لا يغتفر مع اننا نراه يروج سياستهم او بالتعبير الاصح لا يعرف سياسة غيرها ، ولذا يعد اكبر داعية لهم وان كان لا يقصر في الايضاح والتفصيل عن وقائع هذا القطر والاطناب فيها . وزيادة على ذلك نراه يخذل سياسة العجم ويحبب ادارة الترك .

الوزير والمترجم

ان المؤلف يصف الوالي بانه جامع لمزايا اخلاقية نبيلة ومشهور بالعدل والانصاف والشجاعة والادارة الحكيمة ، ويبدي عن نفسه انه صادق في كل ما قاله عن هذا الوزير فلم يراع الاحساس ولا الاطراء الفارغ ، ولا الغلو في المدح ... ذلك لانه مولوي وانه يبغض الكذب ويجانب مركبه، ويتحاشى الرياء وسلوكه... وانما دون ما رآه ولم يخرج الى طريق الغلو

وفي الحقيقة يذكر انتصاراته ، ولم ينتكب عن بيان مخذولياته ومغلوبياته. فالواقعة يقصها أياً كانت نتائجها ولا يبالي ؛ ولكن باسلوب جميل وبحكمة من البلاغة لا تخفى ...

وقد اوضح انه غني عن اي مخلوق . ولا امل له في مال قل او كثر

وانه يرجو من الله تعالى اللطف وان لا يحوجه الى سواه . فهو النافع الضار والمعطي المانع . والحي القيوم المعين ... الى ان يقول :

نعم انني رأيت كرماً وافراً من الوزير ولكنني لم ارتكب الرياء بوقت ، فاذا كنت وصفته فالانصاف يقضي بذلك . ولا غرابة ان يذكر المحسن باحسانه . وعلى كل حال اللسان قاصر عن اداء الشكر خصوصاً ما نالته بغداد في زمنه من الراحة والطمأنينة والعمارة وقضائه على اهل البغي والفساد . ومجاهداته العظمى ... الخ

التحريات عن ترجمته في كتب المعاصرين

حاولت الاطلاع عليه في كتب المؤرخين والمعاصرين له فلم اتمكن من زيادة تكشف عن حياة هذا الرجل الكبير . والمؤرخ القدير ، إلّا نتفة يسيرة في تذكرة سالم افندي قاضي العسكر . فانه كان معاصراً له . او انه ذاع ديوانه وانتشر فوصل اليه لما نال من شهرة كما يتضح من ترجمته التي قصها ... قال :

« نشأ في بغداد دار السلام . ثم تجول في بلاد الروم لتلقي (طريقة المولوية) ترك وطنه وساح للاخذ بها من اكابر رجالها . فدامت تجولاته زمناً طويلا ، وصرفت في سبيل قصده عناءاً عظيماً

ولما اكمل طريقته واتمها على اشهر رجالها في الزهد والتقوى ، وانهى مجاهداته فبلغت حدها وغايتها عكف قافلا الى وطنه الذي الفه بغداد دار السلام فرجع اليها وكانت نتيجة هذه المجاهدات ان عهدت اليه مشيخة المولوية في بغداد . فبقي ملازماً تكيتها يتولى الارشاد . وهو رئيس الحلقة المولوية فصارت تؤخذ منه ، وتتلقى عنه ، باعتباره شيخها والجالس على سجادتها ...

وله قدرة تامة على قرض الشعر في الفارسية والتركية ويعد من اعاظم الشعراء الناطقين بالصدق والصادعين بالحق . وان المقطوعة التالية من اشعاره تدل على قوة نظمه ودرجته :

يايۀ قدرکی درك ایتمکه عارج اولمز

قیلسه سلم اکر اندیشه بونه ایوانی

نعمت یاك شه کونینه نه ممکنکه عزیز

ويرد سن خامة ادراكك ايله پايانى » اه

ولا تزال التكية او الخانقـاه المسماة للآن (بالمولى‌خانه) التي كان اتباعه يقصدونها ويلازمون فيها السلوك معروفة بهذا الاسم. وهي جامع رأس الجسر العتيق من جانب بغداد الشرقية . ويقال له (جامع الآصفية) ايضاً .والعوام لا يعرفونه إلّا بجامع المولى‌خانه كما انهم يسمون السوق المتصـل به « سوق المولى‌خانه » لحد اليوم .

وهذه الطريقة — وان كانت باصنافها الثلاثة من جلبية ، وددوية ،وقلندرية موجودة ببغداد — لم تستطع ان تتغلب على الطريقة القادرية ، ولا على النقشبندية حتى لم تتغلب على الرفاعية . ومع هذا فان الطرائق المذكورة — ماعدا القادرية — اخذ ظلهن يتقلص بفقدان الرجال القائمين بهن . فلم نر مثل الشيخ خالد ولا مثل الشيخ داود ... ولا محل للاطناب في هذا الموضوع الآن

ومن الغريب ان لا نجد للمترجم — بصفته التاريخية ولا من نقطة طريقته ولا غيرهما — بياناً من المراقبين عنه حتى ان صـاحب التذكرة اكتفى ببيانه المذكور اعلاه ولم يتعرض لمؤلفه الجليل في التاريخ .

وعلى كل حال ان مؤلف المرء يكشف عن مكنون صاحبه ويبين حسن اختياره ومقدرته . فالكتاب الذي دونه وهو (قويم) في تاريخ حسن باشـا ينطق بنفسية الرجل وزيادة . وهاك ايها القارئ وصفه :

وصف الكتاب

ان هذا الكتاب يتضمن سيرة الوزير حسن باشا والي بغداد كما تقدم وهو منظوم . وعدد ابياته ٢٨١٧ ولم يترك شاردة ولا واردة من حسناته إلّا قصهـا كما انه اشتمل على حروبه للعشائر وغيرهم من مناوئيه حتى استقرت له الامور واكتسبت نظاماً . وتمكن من السيطرة على العراق وتقوية سلطة الترك عليه . وبحث فيه عن شمائل هذا الوزير وزاد في اطرائه . واول هذه المنقبة :

حمد بي حد وشكر لا يحصى بيعدد منت وسباس وثنا . الخ

اما النسخة الخطية التي بايدينا فكل صفحة منها تحتوي على خمسة عشر سطراً او بيتاً طولها عشرون سنتيمتراً في عرض احد عشر ومعها في هذه المجموعة مقامة

في مدح الوزير حسن باشا لصاحبها عبدالله افندي المفتي وقد مر الكلام عليها في مقال سبق وابيات عربية في وقائع احمد باشا ابن الوزير المذكور واخرى في مدح وزراء آخرين تالين لهما .

اسم الكتاب وسبب نظمه وتعريف مؤلفه

ان المترجم عقد فصلا ابدى فيه سبب النظم وعرف نفسه وتسمية كتابه فقال:

« ذلك العبد الذي هو من تراب اقدام زمرة الفقرا ، المعتق من دار مولانا (يعني بهاء الدين النقشبندي الذي تنسب اليه الفرقة البهائية من النقشية ، وهي غير فرقة البهائية المعروفة في هذه الايام فانها محدثة وتلك قديمة) . المستجير في جميع اموره بالحق سبحانه، المولوي يوسف الشهير بعزيز . يقول : لما كانت هذه الديار (بغداد وانحاؤها من ارض العراق) برج الاولياء ، وذات الاثار المخلدة ، والمدينة التي لا عديل لها ولا مثيل ودار الفيوض اعني دار السلام وهي اشبه بالجنان تجري من تحتها الانهار ، وهي مبلغ رابع الخلفاء (ع) ، ومشهد سيد الشهداء (ع) ، وفيها مقام الفارسي وحذيفة بن اليمان العبسي (رض) ورأس المجتهدين حضرة النعمان الكوفي ، وفيها الجيلي، والجنيد والشبلي ، والشيخ الطائي ، والشيخ العاقولي ، ومعروف الكرخي ، والسهروردي ، وشيخ الشيوخ ابو الحارث الوارث الاول لعلوم الحقائق، وفيها من كمل رجال الدين المبين واكثر الائمة ... فهذه الديار محط رحال هؤلاء الاولياء الكرام والبررة الفخام .

« وفي الايام الاخيرة قبل الالف والمائة اختلت امورها واضطربت احوالها فصارت مستقر اهل الزيغ والفساد، وموطن الاشرار والفساق فتولاها الخلط والخبط وتناولتها ايدي السفهاء . ولم تكن حالة بغداد بأرفه او ارغد من حالة خارجها . مطرها متساوي(؟)، والمصيبة عامة . فضجت الناس مما اعتراها وصرخت لمولاها خصوصاً مما انتابها من خيول الاعراب الذين نشروا العطب والشر ... وبهمة هذا الوزير حييت ، واعاد لها النظام وقهر اهل البغي والعتو . فمآثره هذه تستحق التدوين . واقتضي تتبع مناقبه بصحة نقل حتى اخلاقه ومنشأه وسبب تسنمه منصب الوزارة فنظمت (الف بيت) وسميتها : «قويم الفرج بعد الشدة لبغداد» . ولم انقل اي خبر إلا على وجه الصحة من حسن بين وجيل

صنع ، ورفع بدع ، وازالة جور ، وبيان شجاعة فيه ... فذكرته ليقرأ كل يوم فيكرر ذكره ويكون باعث الخير ومذكراً به ، ولينطق بالدعاء له من قرأه .. »اه

والظاهر من مطالعة هذا الكتاب وعد ابياته انه كان ختمه في مايزيد على الالف بقليل ثم اضاف اليه مقداراً وافراً حتى بلغت ابياته ماذكر في اول البحث.

مقابلات مجملة بتواريخ عراقية

ان هذا الكتاب يمتاز بكثرة المادة والتوسع في الوقائع مع ايضاح الماضي والنظرات العامة وتنوع الفصول والتشريحات الوافية عن حالة العشائر وتدوين سجاياها وايراد اسماء شيوخها باسهاب فالفرق بينه وبين كلشن خلفاء انه يفصل وكلشن يجمل وان كان يرمي كل منهما الى عين الغرض في التعليل وفي ترويج السياسة فكلاهما مشى على خطة واحدة بأن لا يوجد غيرها . وكانت السياسة محدودة طبعاً ومكتومة في الغالب لا يبوح بها عارفها إلّا لمن اوتمن منه او نال مركزاً رفيعاً فينجلي له الامر بوضوح ... وهكذا مشى على هذه السياسة صاحب الدوحة وصاحب مرآة الزوراء

اماحديقة الزوراء فكأنها مأخوذة منه عيناً وباختصار كبير لولا انها تزيد اكثر فيما يولد شقة الخلاف بين الحكومة والعجم ويروج ذلك بين الاهلين بمقتضى حالة ذلك الزمن إلّا انها لم تشر الى انها اخذت منه . وعلى كل حال يصلح هذا التاريخ لتصحيح اعلام الحديقة وتثبيتها وذكر ما اهملته ويفيد لاصلاح السهو والغلط فيها وهو اوسع منها بكثير . وكل ما يقال عنها الآن انها قصرت عنه باعاً واطلاعاً ...

ومن العجب ان لا يطلع صاحب الدوحة على هذا التاريخ فلم يتعرض لذكره وان كان اشار الى انه كتبت في مناقب بعض الوزراء كتباً ورسائل كثيرة . والظاهر ان صاحب كلشن ايضاً لم يطلع عليه ولو كان ذاك لناقشه في مواضعه او انه اجمل مابسطه بمقتضى اسلوبه والخطة التي مشى عليها وانه شاهد حوادث ذلك اساساً فلم يجد معارضة منه ليقارعه ولا رأى ضرورة للنقل عنه وان كان بدأ بتاريخه قبل صاحب قويم

ولا يعاب إلّا من جهة انه كتب في اللغة التركية وانه منظوم . وهذا يدل

على مقدرة ادبية ومهارة وتسلط على الموضوع وله نظائر في كتب المناقب إلّا ان دائرة الشعر ضيقة ومركبه صعب ... وعلى الرغم من ذلك كله لانستغني عن مثل هذا التاريخ لتوضيح احوال المحيط فهو درة ثمينة بل جوهرة مصونة سمح الزمان بها فظهرت للوجود بعد الاهمال والنسيان ... فهي احب الينا من حمر النعم ..١

مواضيعه

ان هذا التاريخ مواضيعه متعددة وكثيرة جداً وبعضها متكرر العنوان نظراً لتكرر الوقائع . قدم عليه مقدمات متوالية ثم ذكر له المواضيع التالية :

« وقائع بغداد ، سبب اختلال دار السلام ، احوال خطة بغداد ، عشائر العربان ، آل غرير وغزوهم ، سفر بني لام ووقائع اخرى معهم ، الخزاعل ، شمر ، غزية (حوادث عنهم) ، بنو حمد وشيخهم ، جموع زبيد وغزوات لهم ، مانع المنتفقي ، ضبطه البصرة ، خان الحويزة ، مغامس وحروب اخرى له ، حروب البلباس ... وغير ذلك من فصول عديدة » اه .

اهداء الكتاب

بعد ان اتمه مؤلفه ودعا بالخير للوزير وابنه احمد بك (لم يكن انئذ باشا) قدمه للوزير وأهداه له بهذين البيتين :

اهـداى حضور آصفى اولمق ايجون نظم اولدى بو آثار حقيقت انشـا
بوبنده كبى قصورى جوقدر كرجه عفو ايله قبول ايلرم استدعا

هذا ولا اطيل القول بذكر بعض فصول الكتاب خشية الاملال فاكتفي بهذا والله اعلم

(لغة العرب) صديقنا الوفي الاستاذ المحامي عباس افندي العزاوي هو اول من نشر ترجمة ليوسف عزيز المولوي ؛ بيد انه لم يتمكن من ان يعرف بوجه اكيد يوم ولادته ولا يوم وفاته فان كان احد من القراء يستطيع ان يذكر لنا هذين اليومين الاول والآخر من حياة المؤرخ العراقي فانه يكسب شكر جميع الناطقين بالضاد ولا سيما العراقيون منهم ولعل بين الادباء غير العراقيين من له وقوف تام على مشاهير هذه الديار وتراجم اصحابها فيأتينا بالخبر اليقين .